ملف العدد

أزمة التربية والتعليم في المجتمعات الحديثة

عند علي عزت بيجوفيتش

عماد عبد الرزاق[١]

(١) أكاديمي مصري.
dr.emad67@gmail.com

إن العالم المسلم بأسره يموج بحالة من الاضطراب والتحول، ومهما يكن الشكل الذي سيتخذه عندما تبدأ آثار هذا التحول في الظهور فإن أمرًا واحدًا هو المؤكد، ألا وهو أن العالم المسلم لن يكون أبدًا عالم النصف الأول من القرن العشرين، بل هذا التحول سيساعد في انتباه العالم الإسلامي إلى ما يحيط به من مؤامرات تريد أن تعصف بهويته ووحدته. إن أطرافًا كثيرة تحاول اليوم أن تستفيد من مرحلة الاضطراب والتحول التي يمر بها المسلمون، وبخاصة القوي العالمية في الشرق والغرب، ولكنهم بدلاً من استخدام جيوشهم يستخدمون الأفكار ورؤوس الأموال.

وبهذه الأساليب من السيطرة يحاولون مرة تحقيق الأهداف القديمة نفسها، وتأكيد سيطرتهم على الشعوب المسلمة وإبقاءها في حالة مستمرة من الضعف الروحي والتبعية المادية والسياسية. إن الجهاد في سبيل غايات نبيلة ليس وليد اليوم، فقد جرب المسلمون السابقون الشهادة، وتاريخهم حافل بصفحات مليئة بالمعاناة والتضحيات والشهداء.

هل نريد للشعوب المسلمة أن تخرج من دائرة التبعية والتخلف والفقر؟ هل نريد لها أن تنطلق في طريق العزة والنهضة مرة أخرى؟ هل نريد للشجاعة المتوهجة والعبقرية والفضيلة أن تنبعث من جديد بكل قوتها وزخمها في كيان هذه الأمة؟ يمكننا أن نبيِّن بوضوح الطريق الذي يؤدي إلى تحقيق هذه الغايات، هذا الطريق يتمثل في الوعي بمشكلات وعوائق النهضة الإسلامية، والعمل على مواجهتها، ومِن أهم هذه المشكلات مشكلة التربية والتعليم ومحاولة النهوض بها، وزيادة وعي المجتمع، وتجديد الأفكار الإسلامية، وإقامة مجتمع إسلامي موحد من المغرب إلى إندونيسيا، والإسلام هو الفكرة الوحيدة القادرة على إطلاق خيال الشعوب المسلمة، الفكرة الوحيدة التي تستطيع أن تقطر في عقول المسلمين ووجدانياتهم كل ما يحفزهم على التنظيم، وكل ما يفجر فيهم الطاقة والإلهام. ويرى **(بيجوفيتش)** أن أسباب نهضة وانحطاط أي أمة غالبًا ما تكون معقدة ومتعددة الأبعاد، ومع ذلك فلا يكون هناك إلا جانب منها له نصيب من الأسباب الموضوعية ما يجعله يخضع للتحليل والمنطق والإدراك، في حين يظل جانبها الآخر غير خاضع لذلك؛ لأنه يكمن في قلوب وإرادة البشر. والسؤال المطروح ما الأسباب الكامنة التي جعلت ينابيع الحياة والإرادة والعلوم تنبع من أرض مصر القديمة واليونان وروما والجزيرة العربية كما نشهدها اليوم، في الوقت الذي تعيش وتموت فيه أجيال لا حصر لها، وغالبًا ما يدور التوضيح المعتاد للأمر المطروح حول الآتي: هو أن العلة في ذلك تُعزَى إلى الحكام والمؤسسات والظروف الاقتصادية وأمية الشعوب وأن الشعوب غير متعلمة؛ ولذلك تحتمل طغيان الحكام وهؤلاء الحكام أنانيون؛ لذلك لا يعملون لتعليم شعوبهم، والمؤسسات التقليدية انعكاس مباشر لمستوى المجتمع الثقافي، بالإضافة إلى تحكم النظام القائم فيها. وبوجه عام، إن من عوامل تخلف الشعوب الإسلامية سببًا خارجيًّا وهو هجوم المغول، والسبب الثاني داخلي، وهو التفسير الديني المحض للإسلام، وأن الوعي البشري لا زال لا يدرك إلى الآن كل الآثار المدمرة لكارثة الاجتياح المغولي مهما كتبنا وتحدثنا عنها.

لقد تم تدمير مئات المدن وكل ما صنعته يد الإنسان في مساحة ومنطقة حيوية بالنسبة للإسلام. ومن جانب آخر كان التفسير الديني المحض للإسلام الذي حصر الإسلام في دائرة رسالة دينية، من أهم أسباب تخلف المسلمين وإعاقة نهضتهم، فالشعوب الإسلامية أو غالبها متخلفة اليوم؛ لأنها لا تتبع الإسلام بالمفهوم العملي، فالإسلام سواء باعتباره رسالة أو ظاهرة تاريخية يرفض الركود والتخلف. ومن أهم عوائق النهضة أيضًا كما يرى **(بيجوفيتش)** أننا نربي شبابنا تربية خاطئة منذ قرون نتيجة لعدم فهمنا للفكر الإسلامي الأصيل، في وقت كان أعداء الإسلام من المستعمرين يستولون على الدول الإسلامية دولة تلو دولة اعتمادًا على علومهم

وغطرستهم وعدم مبالاتهم بنا. ويطرح هذا البحث عدة إشكالات أو أسئلة هامة: ما مفهوم التربية عند **بيجوفيتش**؟ ما أثر التعليم في نهضة الأمة؟ ما سمات التربية والتعليم عنده؟ كيف تحقق التربية وخاصة التربية الإسلامية نهضة الأمة؟ كيف نحقق التوازن بين التربية والتعليم في مجتمعاتنا المسلمة وما هو قادم من الغرب؟ ما أهم مرتكزات النهضة الإسلامية؟ وغيرها من الأسئلة التي سوف يجيب عنها البحث.

أولاً حياته ومؤلفاته

ولد علي عزت **بيجوفيتش** في ١٨محرم عام ١٣٤٤ه، ١٩٢٥م وتوفي في ١٩ أكتوبر عام ٢٠٠٣ بالبوسنة، وهو أول رئيس جمهوري لجمهورية البوسنة والهرسك بعد انتهاء حرب البوسنة والهرسك. وهو ناشط سياسي وفيلسوف إسلامي، نشأ وترعرع في مدينة بوسانا كروبا البوسنية، واسم عائلته يمتد إلى أيام الوجود التركي بالبوسنة. وتلقى تعليمه في مدارس العاصمة سرايفو، وتخرج في جامعة سرايفو تخصص القانون، وعمل مستشارًا قانونيًّا لمدة خمسة وعشرين عامًا، ثم اعتزل وتفرغ للكتابة. ونشأ **بيجوفيتش** في وقت كانت البوسنة والهرسك جزءًا من يوغسلافيا التي تحكمها أسرة ليبرالية، ولم يكن التعليم الإسلامي جزءًا من المناهج الدراسية، وكان **بيجوفيتش** -وهو لا يزال شابًا- واعيًا بأهمية أن يتعرف على دينه الإسلامي ويقرأ فيه قراءة مستفيضة، فاتفق مع زملائه أن ينشئوا ناديًا مدرسيًّا أو جمعية لمناقشات الدينية سموها **(ملادي مسلماني)** أي الشبان المسلمين[٢].

وفي عهد تيتو كان **بيجوفيتش** معارضًا بارزًا، وسُجِنَ عدة مرات في عهده، وكان كثيرًا ما يتهم من قبل أطراف صربية وكرواتية بأنه من داعمي الأصولية الإسلامية، ولقد تسلم **بيجوفيتش** رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك من عام ١٩٩٠ إلى ١٩٩٦ بعد التوقيع على اتفاقية دايتون، ومن ثَم أصبح عضوًا في المجلس الرئاسي البوسني. وبعد انتهاء ولاية المجلس الرئاسي البوسني قرر **بيجوفيتش** اعتزال الحياة السياسية وذلك لسببين:

الأول: بسبب الضغوط الدولية التي تعرض لها لمواقفه الدينية المحافظة.

والثاني: بسبب تدهور صحته[٣].

ومن أهم منطلقاته الفكرية في مشروعه ضرورة إعادة النظر في التعليم التقني والتعليم الكلاسيكي، فالتعليم التقني هو سبب

(٢) **علي عزت بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، ترجمة: حسين عمر سباهيتش، جمعية قطر الخيرية، الدوحة، ط١، ٢٠١٣، (ص/١٥).**

(٣) **علي عزت بيجوفيتش، هروبي إلى الحرية، ترجمة: إسماعيل أبو النبدورة، مراجعة: محمد أرناؤوط، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢، (ص/٤٧).**

الحضارة ونتيجة لها، والحضارة مبنية رأسًا على هذه التقنية التي دخلت بشكل واسع على عدة مجالات من مجالات الحياة، أما التعليم الكلاسيكي فيشمل التاريخ والفنون والآداب والقانون، لأجل ذلك لو كان التعليم تقنيًّا فقط فلن نجد إنسانًا مستنيرًا بثقافة روحية يستقيها من برامج التاريخ والفنون والآداب والأخلاق.

هذه الثقافة هي التي تجعل الإنسان يتحكم في التقنية وليس العكس. بموجب هذا يصف الحضارة بأنها ملحدة، والثقافة بأنها مؤمنة من منطلق أن الحضارة تختزل الإنسان في جانبه المادي فقط، والثقافة تهتم ببعده الروحي، فحامل الثقافة هو الإنسان الفرد وحامل الحضارة هو المجتمع؛ لذا ركز **(بيجوفيتش)** على الدور الرئيس للتربية والتعليم، ويرى أن من أسباب بقاء الأمة حية متسمة بالفاعلية، هو التحام المسجد بالمدرسة، ويطلق **بيجوفيتش** على ذلك مصطلح **(المسجد رسة)**، بمعنى التوازن بين العقل والقلب، فالمسجد يذكي الروح الإيمانية عند المسلم، والمدرسة تغرس فيه حب المعرفة والسعي لاكتسابها، والجمع بينهما معًا من تمام الإيمان[٤]. ويجب أن نشير هنا إلى أن هذه النشأة أثرت تأثيرًا كبيرًا في فكر **بيجوفيتش**؛ لأنه أدرك خلال سنوات الاحتلال التي عايشها كيف كان يعاني مجتمعه من التضييق على حريته، وضرورة نشر التعاليم الإسلامية، وتعليم وتربية النشء الصغير على تعاليم ومبادئ الإسلام. كذلك لعبت هذه التنشئة دورًا في سماته الشخصية من الصلابة وتحمل المسؤولية والصمود أمام العقبات والمواقف الصعبة، وإدراك وفهم كل ما يعوق تقدم الأمة الإسلامية، كذلك ساعدته على فهم مخططات الاحتلال وكيف يفكر.

ثانيًا: مؤلفاته

الإسلام بين الشرق والغرب، الإعلان الإسلامي، هروبي إلى الحرية، وعوائق النهضة الإسلامية، مذكرات **بيجوفيتش** في السجن.

ثالثًا: النهضة الإسلامية ومنطلقاتها

يرى **بيجوفيتش** أن فكرة النهضة الإسلامية التي تنظر إلى الإسلام لا من حيث قدرته فقط على تهذيب الإنسان، ولكن أيضًا على تنظيم العالم، سوف تصطدم دائمًا بنوعين من الناس، وهم: المحافظون ودعاة الحداثة، يتعلق المحافظون بالأشكال القديمة، ويتطلع دعاة التحديث إلى الأشكال الأجنبية، يجر الأولون الإسلام إلى الوراء نحو الماضي، ويقحم الآخرون الإسلام في متاهات مستقبل أجنبي. قد يبدو من قبيل التكرار تأكيد الحقائق الأساسية فيما يتعلق بأصل الإنسان ورسالته، إلا أن مدخل الإسلام في هذه الناحية يعد مدخلاً متميزًا يدعو إلى الجمع بين الإيمان والعلم، وبين الأخلاق والسياسة، بين المثل

(٤) زكي ميلاد، الثقافة والحضارة قراءة في نظرية علي عزت بيجوفيتش، مقال في مجلة منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، العدد ٤٢، ٢٠٠٤م، (ص/١٥).

العليا والمصالح. وبالاعتراف بوجود عالمين: العالم الطبيعي والعالم الروحي الجواني يعلمنا الإسلام أن الإنسان بتكوينه الفريد هو الذي وصل بين هذين العالمين، وبدون التوحيد بين العالمين سنجد الدين يميل إلى التخلف **(حيث يرفض أي نوع من أنواع الحياة المنتجة)** ونجد العلم يميل إلى الإلحاد. وانطلاقًا من وجهة النظر التي تذهب إلى أن الإسلام مجرد دين، سنرى أن المحافظين يستنتجون أن الإسلام لا يستطيع تنظيم العالم الخارجي، والنتيجة العملية واحدة. إن النصير الرئيس، إن لم يكن الأوحد للفكر المتحفظ في العالم المسلم اليوم **(هم الحجاج والمشايخ)** هؤلاء الناس -خلافًا للتعاليم الواضحة **(لا كهنوت في الإسلام)**- جعلوا من أنفسهم طبقة منظمة هيمنت على تفسير الإسلام ووضعت نفسها وسيطًا بين الإنسان والقرآن، ولأنهم جعلوا من أنفسهم طبقة: فقد أصبحوا لاهوتيين متحجرين في معتقداتهم[٥].

ولأن العقيدة الإسلامية في نظرهم قد تنزلت وتم تفسيرها بصفة نهائية فإن أفضل شيء ممكن هو أن نترك كل الأمور كما وصلت إلينا، وتم تحديدها منذ ألف سنة مضت أو أكثر، وبهذا المنطق المتحجر أصبحوا أعداء أشداء لكل جديد. فأي محاولة لتطوير الشريعة كقانون، بمعنى تطبيق مبادئ القرآن على المواقف المستجدة التي ما فتئت تظهر خلال تطور الحياة يواجهها هؤلاء في سلامة إيمان أصحاب هذه المحاولات. وهكذا كما يقول **(بيجوفيتش)** إن عقيدة الوحدانية التي جاء بها القرآن -وهي أنقى وأكمل الأفكار الدينية التي ظهرت- يضحى بها تدريجيًّا، في حين ظهرت في الممارسة تجارة بغيضة في العقيدة. ويشير إلى أن اللاهوتيين أناس غير صالحين في مكان غير مناسب، والآن وقد بدأت جميع الدلائل تشير إلى أن العالم الإسلامي يصحو من رقدته، فإن هذه الفئة أصبحت تمثل التعبير عن كل ما هو كئيب ومتصلب في هذا العالم [٦].

> وينتقد **(بيجوفيتش)** ذلك التيار الذي يتبنى كل أفكار الغرب من دون فحص أو نقد، ويرى أنهم يمثلون في الحقيقة سوء حظ هذه الأمة المسلمة.

إنهم كثرة كثيرة ذات نفوذ وتأثير، إنهم يهيمنون بشكل ملحوظ على الحكومات والتعليم والحياة العامة. واستطاع دعاة الحداثة أن ينشئوا جبهة ضد كل ما تمثله الفكرة الإسلامية، إنهم بدلاً من العمل على تطوير إمكانات ببلادهم الخاصة ذهبوا ينفخون في شهوات الناس ويضخمون رغباتهم المادية، فأفسحوا بذلك الطريق أمام الفساد والفوضى الأخلاقية، إنهم لم يستطيعوا أن يفهموا أن قوة العالم الغربي لا تكمن في طريقته في الحياة، وإنما في طريقته في العمل، وأن قوته ليست في الموضة والإلحاد،

(٥) **علي عزت بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، (ص/٦٧)**.

(٦) **علي عزت بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، (ص/٧٠)**.

وإنما تكمن في الكبح الذي لا مثيل له، وفي المثابرة والعلم والشعور بالمسؤولية التي تتميز بها شعوبهم. إن دعاة الحداثة في العالم المسلم حينذاك لم يكونوا من الحكماء الذين انبثقوا من صميم شعوبهم يعرفون كيف يطبقون بطريقة جديدة الأفكار والقيم القديمة على الظروف المتغيرة، إنما ناصبوا هذه القيم العداء، فعلوا ذلك بسخرية باردة، وسحقوا بأقدامهم كل ما هو مقدس عند الناس، فدمروا الحياة واستزرعوا بدلاً منها حياة مصطنعة غير حقيقة[٧].

ويشير **(بيجوفيتش)** إلى أن العنصر المشترك بين المحافظين ودعاة الحداثة هو النظرة القاصرة أحادية الجانب إلى الإسلام، حيث يعتبر أنه مجرد دين، بمعنى أنه مقتصر على الحياة الروحية للفرد، ولا شأن له بتنظيم الحياة الدنيا. ويكشف لنا **بيجوفيتش** عن سمة تميز دعاة الحداثة وتيسر لنا التعرف عليهم، فهم يفخرون بما كان يجب أن يخجلوا منه، ويخجلون مما كان يجب أن يفخروا به، لقد جلبوا إلى أوطانهم أفكارًا ثورية أجنبية، وبرامج إصلاح ومذاهب إنقاذ موصوفة لعلاج كل المشكلات، فإذا تأملنا نجد لدهشتنا نماذج لا يصدقها عقل في قصر نظرها وارتجالها[٨].

ويقارن بعد ذلك بين فلسفتي الإصلاح التي تبنتها كل من اليابان وتركيا **(تحت نظام كمال أتاتورك)** ويكشف لنا **بيجوفيتش** عن الأسباب التي جعلت اليابان تنجح وتنطلق إلى قمة المجتمعات المتقدمة، في حين انحطت تركيا إلى دولة متخلفة من دول العالم الثالث. وينتهي **بيجوفيتش** إلى نظرية بالغة الأهمية حيث يرى أن جميع نجاحاتنا وإخفاقاتنا في الأخلاق والسياسة إنما هي مجرد انعكاس لفهمنا للإسلام وللكيفية التي طبقناه بها في الحياة، لقد كان ضعف تأثير الإسلام في الحياة العملية للمسلمين مصحوبًا دائمًا بانحطاطهم وانحطاط مؤسساتهم السياسية والاجتماعية، وتاريخ الإسلام كله منذ بدايته إلى يومنا هذا يؤكد هذا التطابق، كان هذا التطابق هو المصير الذي لا مناص منه للشعوب المسلمة، وأحد قوانين التاريخ الإسلامي نفسه[٩].

> ويؤكد على أن من أهم المرتكزات الأساسية في النهضة الإسلامية هو **القرآن الكريم،** ويشير إلى أن القرآن هو الفكرة المركزية في الأيديولوجية الإسلامية والممارسة الإسلامية

ويلفت الانتباه إلى أن إشكالية القرآن في المجتمعات الإسلامية ترجع إلى أن هذه المجتمعات تتعلق به تعلقًا عاطفيًّا، ولكنها لا تستطيع تطبيقه في حياتها، وهنا يكمن الفصام بين الكلمة والفعل في العالم المسلم، وينسب ظواهر الفساد والانحراف والسطحية

(٧) **المرجع السابق، (ص/٧٣).**

(٨) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، تقديم وترجمة: محمد يوسف عدس، مكتب الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٩، (ص/٥٢).**

(٩) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، (ص/٥٣).**

والتخلف جميعًا إلى هذا التناقض الأساسي بين حماسنا المشتعل تجاه القرآن وبين الإهمال الكامل لمبادئه في الممارسات العملية. ويرى أن أسوأ الملامح في أوضاع المسلمين عامة تتمثل في تلك الفجوة المأساوية بين النخبة المهيمنة وبين الشعوب في البلاد المسلمة، وأن افتقاد التوافق بين عناصر الفكرة والقيادة من ناحية وبين الجماهير من ناحية أخرى يخل بالشرط الأول لأي إنجاز عظيم، ويرجع السلبية واللامبالاة لدى جماهير المسلمين إلى وجود هذه الفجوة. ويشير إلى أن أي برامج إصلاح لن يكتب لها النجاح أبدًا إذا كانت معادية للإسلام متجاهلة لمشاعر الجماهير المسلمة. وبناء على ذلك ستجد النخبة من دعاة الحداثة يضربون برءوسهم في صخرة الرفض العنيد واللامبالاة الدفينة من جانب الناس البسطاء الذين يشكلون الغالبية العظمى من الأمة[١٠].

ويذكرنا **بيجوفيتش** بحقيقة هامة وهي أننا لا ينبغي أن نستهين بقدر الأخوة بين المسلمين ولا بالعاطفة القوية التي تربطهم في جميع أنحاء الأرض بالقرآن، التي تدل على أن العالم المسلم لم يمت، وإنما لا يزال حيًّا ينبض بالحياة. فحيث توجد مثل هذه المشاعر لا يوجد موت، إن العالم المسلم ليس صحراء مقفرة، وإنما تربة عذراء في انتظار الزراع، وبفضل هذه الحقائق تصبح مهمتنا واقعية قابلة للتحقيق. إن مهمتنا تتمثل في تحويل هذه المشاعر الكامنة إلى قوة فعالة مؤثرة، فالإخلاص للقرآن لا بد أن يتحول إلى تصميم على تطبيقه، وأن تتحول الجماعة الإسلامية القائمة على الوجدان إلى جماعة واعية منظمة، وأن يتحول حب الإنسانية إلى أفكار واضحة لتصبح هي المحتوى الأخلاقي والاجتماعي للقوانين والمؤسسات[١١].

ثم يطرح **(بيجوفيتش)** سؤالاً في منتهى الأهمية: النهضة الإسلامية أثورة دينية النهضة الإسلامية أم سياسية؟ وللإجابة على هذا السؤال يرى أنه من وجهة نظره لا يمكن البدء في نهضة إسلامية دون ثورة دينية، كما أنه لا يمكن لهذه النهضة أن تواصل سيرها بنجاح وتكتمل إلا بثورة سياسية. هذه الإجابة تحدد النهضة الإسلامية باعتبارها ثورة مزدوجة، أخلاقية واجتماعية، وتعطي أولوية واضحة للصحوة الدينية. هذه الإجابة تنبثق من طبيعة الإسلام ومبادئه وليس من الواقع الكئيب الذي يطبع العالم المسلم في الوقت الحالي. هذا الواقع يفصح عن خطورة الحالة المعنوية للعالم المسلم، كما يكشف عن الانحراف وسيطرة الانحراف والفساد والخرافة، والكسل والنفاق. ويشير إلى أن كل أمة قبل دعوتها لأداء دورها في التاريخ عليها أن تحيا فترة من التطهير الجواني والتسليم العملي بمبادئ أخلاقية أساسية معينة، إن كل قوة في العالم تبدأ بثبات أخلاقي، وكل هزيمة تبدأ بانهيار أخلاقي[١٢].

(١٠) **المرجع السابق، (ص/٥٣).**

(١١) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، (ص/٥٤).**

(١٢) **المرجع السابق، (ص/١١٩).**

رابعًا: الصحوة الإسلامية

يشير **بيجوفيتش** في معرض حديثه عن الصحوة الإسلامية إلى أنها وعي واضح بالغاية الحقيقية للحياة لماذا نحيا؟ ولأجل أي هدف نحيا؟ أهدف شخصي هذا الهدف أم هدف مشترك؟ أبعظمة العنصر الذي انتمى إليه يتعلق الهدف أم بمجد الأمة أم بتأكيد شخصيتي الفردية، أم هو بهيمنة شريعة الله على الأرض؟ بالنسبة لحالتنا الصحوة الدينية تعني من الناحية العملية **(أسلمة)** الناس الذين يدعون أنهم مسلمون، أو أولئك الناس الذين يدعون الآخرين بهذا الاسم. فنقطة الانطلاق في هذه الأسلمة هي الإيمان الراسخ بالله من جانب المسلمين، والالتزام الدقيق الأصيل بقيم الإسلام الدينية والأخلاقية. أما العنصر الثاني للصحوة الدينية فيتمثل في الاستعداد للقيام بالواجبات التي يفرضها الوعي بالهدف. فالصحوة الدينية لذلك هي نوع من الالتزام الأخلاقي والحماسة، حالة من القوة الروحية على المادة، حالة من المثالية الحية العملية يصبح فيها الأشخاص العاديون قادرين على أعمال بطولية تتسم بالشجاعة والتضحية، ومن ثَمَّ فالصحوة الدينية خاصية جديدة للإيمان والإرادة تتلاشى فيها قيمة المعايير اليومية المألوفة للممكن، ويرتفع فيها الفرد والجماعة معًا إلى درجة أعلى من درجات التضحية في سبيل تحقيق مثلهم الأعلى. وبدون هذه الحالة الجديدة للروح والشعور يستحيل تحقيق أي تغيير حقيقي في عالم المسلمين الحالي. وعند النظر في هذه الأمور تستبد بنا الحيرة ولو للحظة قصيرة فنتساءل هل أقصر طريق للنظام الإسلامي هو الاستيلاء على السلطة التي ستقوم بدورها ببناء المؤسسات المناسبة، وتقوم بتربية الشعب تربية دينية وأخلاقية وثقافية، كمقدمة ضرورية لبناء مجتمع إسلامي؟ لكن هذه مجرد غواية، فالتاريخ لا يذكر لنا أي ثورة حقيقية جاءت عن طريق السلطة، وإنما عن طريق التربية، وكانت معنية في جوهرها بالدعوة الأخلاقية[١٣].

ويشير **(بيجوفيتش)** إلى أن الصحوة الدينية بحكم تعريفها تعني البدء بالذات، بحياة الإنسان نفسه، أما فكرة العنف والسلطة كوسيلة للتغيير فهي موجهة للآخرين، وهذا ما يجعل هذه الفكرة ذات إغواء. لذلك لا بد لأي حركة تتطلع إلى النظام الإسلامي كهدف أساسي لها أن تكون حركة أخلاقية، أن تستهدف إيقاظ الناس بالمعنى الأخلاقي، وأن تكون لها وظيفة أخلاقية تنهض بالناس وتصلح أحوالهم، وهذا هو الفرق بين الحركة الإسلامية والحزب السياسي. ولقد أعطت المصادر الإسلامية أولوية مطلقة للصحوة الدينية للأسباب التالية:

أولاً: يقرر القرآن أن الصحوة الجوانية **(تغيير النفس)** شرط سابق على أي تغيير أو إصلاح أوضاع أي جماعة {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} **[الرعد ١١]**.

(١٣) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، (ص/١٢٢).**

ثانيًا: تأكدت هذه القاعدة عمليًّا في صدر الإسلام وفي جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم طوال الثلاث عشرة سنة الأولى من الدعوة الإسلامية، اقتصر في نقاشه على قضايا الإيمان وتأكيد المسؤولية، ولم يتطرق في تلك الفترة لأي مشكلة اجتماعية أو سياسية، ولم يقرر أي نوع من القوانين الاجتماعية المبنية على الإسلام. لذا يرى **بيجوفيتش** أننا نتطلع إلى الصحوة الدينية في تحقيق ثلاثة أمور هامة:

> الصحوة الدينية وحدها التي يمكن أن توفر العزم دون تردد أو تساهل في تطبيق أحكام القرآن، ولا سيما تلك الأحكام التي تتعلق بالأمراض الاجتماعية المتأصلة، أو التي من شأنها إحراج أصحاب السلطات ومحتكري الثروات العريضة. وتعني الصحوة الدينية هنا أن يتم تطبيق هذه الأحكام من دون عنف ولا كراهية؛ لأن كل المجتمع الذي استيقظ وعيه الديني أو غالبيته سوف يفقه هذه الأحكام ويرحب بها؛ طاعة لأمر الله وتحقيقًا للعدل

لا يمكن تصور نهضة إسلامية دون استعداد لتضحيات هائلة بالأموال والأنفس، ولا دون درجة عالية من الثقة المتبادلة والتعاون المخلص فيما بينهم، وإلا فما الذي يحول دون استغلال هذه الجهود والتضحيات التي يفرضها على نفسه فريق من المجتمع لكي يستخدمها فريق آخر لدعم سيطرته وإشباع مطامعه؟ وما الذي يمنع تكرار مأساة الهزائم الأخلاقية التي يتكرر ظهورها في التاريخ الحديث للمسلمين؟

نظرًا للتخلف المذهل في العالم الإسلامي عليه أن يسير سيرًا حثيثًا في مجال التربية والتصنيع جنبًا إلى جنب؛ ذلك لأن التنمية المادية المتسرعة تكون عادة مصحوبة بأعراض مرضية خطيرة، تتمثل في الاستبداد والفساد وتحطيم الأسرة، ولا يوجد سد يحول دون الفيضان الكاسح لهذا الخبث المضاد للثقافة والأخلاق إلا ذلك السد الذي يُبنَى على أساس من الإيمان القوي الخالص لله، والالتزام بتعاليم الدين من قبل جميع فئات الشعب، فالدين هو الذي يضمن لنا ألا نقوض الحضارة وأركان الثقافة[١٤].

خامسًا: النظام الإسلامي

يُعرِّف **(بيجوفيتش)** النظام الإسلامي في أبسط تعريفاته بأنه هو الوحدة بين الدين والقانون، التربية والسلطة، بين المثل الأعلى والمصلحة، بين الجماعة الروحية والدولة، بين الإرادة والقوة[١٥]. والنظام الإسلامي باعتباره المركب من هذه المكونات جميعًا يفترض افتراضين أساسيين: أولهما مجتمع إسلامي، ثانيهما حكم إسلامي. الأول هو مادة النظام الإسلامي والثاني هو شكل هذا

(١٤) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، (ص/١٢٤).**

(١٥) **علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، ط١، بيروت، ١٩٩٤، (ص/٨٨).**

النظام، فالمجتمع الإسلامي من دون السلطة الإسلامية مجتمع ناقص مفتقر إلى القوة، **والحكم الإسلامي من دون مجتمع إسلامي إما أن يكون طوباويًّا خياليًّا أو عنفًا وقهرًا**. وبصفة عامة لا يوجد المسلم كشخص مفرد، فإذا أراد أن يحيا ويستمر في البقاء بصفته مسلمًا عليه أن يخلق بيئة، أن يقيم جماعة ونظامًا، فالمسلم بين خيارين لا ثالث لهما، إما أن يغير العالم، وإما أن يستسلم للتغيير[١٦].

ويشير إلى أن طبيعة المجتمع الإسلامي هو مجتمع متحرر من الصراعات، فهو إطار من العلاقات يجد المسلم فيه نفسه على اتساق مع بيئته، ويقصد بالصراعات الانفصال بين الفكر والتطبيق أي نحمد الله ونثني عليه داخل المسجد، ولا نفعل ذلك خارج المسجد. ويعني هذا التعريف أنه لا يوجد نظام مؤسسات وعلاقات وقوانين منفصلاً عن الناس الذين هم هدف هذا النظام، ثم يقال إن هذا النظام الإسلام، فلا يوجد نظام إسلامي ولا غير إسلامي قائم بذاته، وإنما يكون النظام إسلاميًّا أو غير إسلامي فقط بالناس الذين يؤلفون هذا النظام. لقد جمع الإسلام في خطابه بين الإنسان الحي المتكامل كما صوّره القرآن وتمثل في حياة الرسول وبين الطبيعة أو العالم الخارجي، فكان بذلك تعبيرًا عن الإنسان الكامل وعن الحياة في جميع وجوهها، وفي هذا الإطار توحد الإيمان مع القانون وتوحد التعليم والتربية مع السلطة، وبذلك أصبح الإسلام نظامًا[١٧].

ويؤكد على أن النظام الإسلامي لا يمكن إقامته من دون مجتمع إسلامي كشرط أساسي، وإلا تحول هذا النظام إلى عنف وقهر واستبداد. ويشير **بيجوفيتش** إلى أنه استنادًا إلى بعض الدلائل العملية يمكن القول إن أغلب حكومات الدول ذات الشعوب تقاوم إقامة النظام الإسلامي للحكم باستخدام التبريرات المصطنعة، مع أن النظام الإسلامي نظام طبيعي تلقائي لمجتمعات الشعوب المسلمة. إن نظام الحكم الإسلامي يمكن أن يقوم في تلك المجتمعات بين عشية وضحاها إذا ما أبعدنا عنها وسائل القمع، وتلك النظم التي تحيا بطرق مصطنعة. وستقيم الشعوب الإسلامية المحررة هذا النظام الإسلامي؛ لأنها لا ترضى بأي نظام أو مذهب دخيل، ولا بالنظام الوراثي سواء أهو مستند إلى الدستور أم لا، ولا بأي شكل من الجمهورية الشعبية أو الجمهورية الديمقراطية، ولا بالدولة ذات الدين الإسلامي الرسمي الذي يتحكم فيه المرتدون، ولا بصورة باهتة لتقليد نظم الدول الأوروبية التي تفصل الدين عن الدولة؛ لأن الشعوب الإسلامية بكل بساطة لا تريد غير الإسلام والدولة الإسلامية والنظام الإسلامي الأصيل.

إن فشلنا في مواجهة أوضاعنا إضافة إلى أشياء أخرى -كما يشير **بيجوفيتش**- يؤخر وجودنا في الساحة دائمًا، ونعالج النتائج بدلاً من معالجة الأسباب، فهزائمنا على أيدي إسرائيل نموذج لمعالجة أعراض المرض بدلاً من أسبابه. إن هذه النبتة السامة التي تُسمَّى

(١٦) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، (ص/٩٢).**

(١٧) **المرجع السابق، (ص/٩٣).**

إسرائيل لم تزرع عقب الحرب العالمية الثانية كما يظن أغلب المسلمين، بل إن جذورها أعمق من ذلك، ومن أقوى جذورها الحرب بين العرب والأتراك من عام ١٩١٤-١٩١٧.

> وتوالت فصول ذلك الوضع في شكل تسميم العقول والكراهية للمسلمين في الحروب التي لم تنقطع لحظة واحدة، وإنما غيرت أثوابها وأشكالها وأساليبها، ونتيجة لتلك المساعي مجتمعة تكوّن العالم المعادي للإسلام الذي يتحد تلقائيًّا كلما احتاج الأمر إلى النيل من الإسلام والمسلمين[١٨].

لذا يرى أننا يجب أن نتعلم من أعدائنا، وإذا كان العدو المحتال المتعلم قد أدرك أن أسهل طريق لإضعاف وإفساد المسلمين هو نشر مذهب الضياع الفكري والروحي بينهم، وزرع أسباب الفرقة والتنازع والشكوك، فواجبنا العملي أصبح واضحًا، علينا أن نزرع في صفوف العدو مذاهب زعزعته وإضعافه، ونبني الثقة في الإسلام وحده.

سادسًا: التربية

يلفت **بيجوفيتش** أنظارنا إلى حقيقة هامة وهي أننا نربي شبابنا تربية خاطئة منذ قرون؛ لعدم فهمنا للفكر الإسلامي الأصيل، في وقت كان أعداء الإسلام من المستعمرين يستولون على الدول الإسلامية دولة تلو دولة اعتمادًا على علومهم وغطرستهم وعدم مبالاتهم بنا. كنا نربي أجيالنا على أن يكنوا الخير للجميع وليستسلموا لطوارق القدر، وليتحلوا بالطاعة، وليطيعوا ولي الأمر طاعة عمياء؛ لأن كل حكم يأتي من عند الله. ويقول: لا أعرف مصدر فلسفة الطاعة الحزينة هذه، ولكني أعرف يقينًا أن الإسلام ليس مصدرها؛ لأنها تؤدي وظيفتين تكمل إحداهما الأخرى بصورة غير مباشرة: من جانب نميت الأحياء، ومن جانب آخر لإبراز هذه المثل الخاطئة باسم الإسلام، تحشد حول الإسلام أجيالاً ماتت قبل أن تبدأ حياتها. إنها تحيل كائنات بشرية سوية إلى أناس لا يثقون في أنفسهم، الذين يطاردهم شبح الذنب والإدانة، لتصبح هذه الفلسفة موئلاً لأقزام البشر الذين يهربون من الواقع: بحثًا عن الملجأ في الاستسلام السلبي ومواساة النفس[١٩].

بهذا التفسير فقط يمكن توضيح الحقيقة بأن رواد ورموز الفكر الإسلامي أو كما يسمون أنفسهم يلاقون الهزائم في أي مواجهة في عهد الصحوة المعاصرة. أليس من الطبيعي أن يقود شباب الشعوب الإسلامية رجالاً تربوا في الإسلام واستلهموا الطريق من الفكر الإسلامي؟ ولكنهم لا ينجحون لسبب واحد أنهم ربوا ليكونوا أتباعًا لا قادة. أليس من كنه المنطق أن يكون المسلمون المخلصون ركائز

(١٨) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، (ص/١١٤).**

(١٩) **علي عزت بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، (ص/١٠١).**

الثورة على المستعمر الأجنبي والأفكار الأجنبية الداخلية والطغيان السياسي والاقتصادي؛ لأنهم تعلموا ألا يرفعوا صوتهم مجلجلاً وأن يقولوا سمعًا وطاعة، إننا لم نربِّ المسلمين بل ربينا الجبناء، مستسلمين ودعين، خدمًا، فطوبى لكل نظام بأشباه الرجال من أمثالنا.

ألسنا نحن مشاركين في استعباد واضطهاد شعوبنا، في هذا العالم المليء بالفتن والرذائل والملهيات عما كان عليه الإسلام في التاريخ[٢٠]، وليس عما يجب أن يكون عليه، هل يعرف شبابنا كثيًرا عن قصر الحمراء والفتوحات الماضية وبغداد ومدينة ألف ليلة وليلة، ومكتبات سمرقند وقرطبة الزاخرة؟ إن عقلية الشباب توجهت كليًّا إلى نحو التاريخ المجيد، وبدأ يعيش على ذلك التاريخ. إن التاريخ مهم بلا شك، ولكن ترميم سقف المسجد بجوار بيتك أنفع للإسلام من معرفتك بأسماء جميع المساجد الشهيرة التي أقامها أسلافنا.

إن من صريح التناقض كما يرى **بيجوفيتش** أن تقدم لنا تربية الذل والانصياع والطاعة هذه باسم تربية القرآن الذي يذكر مبدأ الجهاد ومقاومة الظلم في أكثر من خمسين موضعًا. ويجزم **بيجوفيتش** بأن القرآن قد حرم هذا النوع من الطاعة، فبدلاً من طاعة العظماء والسلاطين الزائفين أقر القرآن نوعًا واحدًا من الطاعة فقط، هي الطاعة لله وحده، ولكن القرآن بنى على هذه الطاعة المطلقة لله حرية الإنسان وتحرره من أي طاعة أخرى أو خوف.

إذن ما الذي يمكن أن ننصح به الآباء والمربين؟ يجب أن ننبههم قبل كل شيء، ألا يقتلوا هذه الطاقة في الشباب، عليهم أن يصغوا لهذه الطاقة وأن يوجهوها؛ لأن الشباب المسلوب الإرادة لا ينفع الإسلام ولا سبيل لإعادة حيوية الإسلام بأناس أموات، ولكي يربوا المسلمين عليهم أن يربوا رجالاً كاملين، وليحدثوهم عن العزة أكثر من الطاعة، والشجاعة أكثر من التواضع، وعن العدالة أكثر من الشفقة، ليخرجوا لنا جيل العزة والمهابة الذي سوف يقف على قدميه بثبات ليمضي في طريقه من غير أن يسال عن الإذن من أجل العمل، ولنعلم جيدًا أن تقدم الإسلام مثل أي تقدم آخر سيتحقق على أيدي الشجعان الثائرين، لا على أيدي الوديعين المطيعين[٢١].

ويشير إلى أنه لما كان الدين هو الأساس في المجتمع الإسلامي، فإن التربية لا تعتبر فقط إحدى وظائفه، وإنما هي لب وجوده وبقائه، إنها فوق كل شيء، تربية دينية وأخلاقية، تبدأ في الأسرة وتستمر خلال المراحل الدراسية.

وأمام النظام الإسلامي مهمة خاصة عليه أن ينهض بها، ألا وهي القضاء على جميع أشكال التربية الخاطئة. إن الإسلام يحرم أمورًا وعلى النظام أن يتخذ جميع الإجراءات اللازمة للقضاء عليها، وهي كالآتي:

(٢٠) **علي عزت بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، (ص/١٠٢)**.

(٢١) **علي عزت بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، (ص/١٠٣)**.

جميع أنواع المسكرات والمخدرات.

الدعارة العلنية والسرية، الإباحية في الكلمة المنطوقة. كذلك أندية القمار والأندية الليلية وصالات الرقص وغيرها من أنواع اللهو التي تتعارض مع تعاليم الإسلام[٢٢].

> ثم يتحدث **بيجوفيتش** عن الآثار التربوية والأخلاقية التي تقف وراء العبادات في الإسلام مثل الصلاة، فهي ليست عبادة محضة كما يرى، بل إنها تمثل مدرسة للانضباط والتآخي والتضامن، إن الصلاة طهارة وعمل ومشاركة.

كما أن الصوم تربية شاقة تسعى لتحقيق أهداف متنوعة، إضافة إلى أنه عبادة فإنه يحيي معاني تربوية وطبية واجتماعية كثيرة، لذلك لم تكن المجتمعات الإسلامية ترى في الصوم مجرد مسألة خاصة بالفرد، بل كانت تثور ثائرتها أمام كل مجاهرة بانتهاك هذه العبادة؛ لأنها كانت ترى هجومًا سافرًا على تماسكها الداخلي الذي يبنيه الصوم. كما أن الزكاة ليست صدقة، بل هي أشبه بضريبة أو إلزام بإخراج جزء من المال لصالح المحتاجين، إن مؤسسة الزكاة في الإسلام تتضمن مقومات راسخة ليس لمحاربة الفقر فقط، بل ولتنمية شعور التفاهم والاحترام في المجتمع[٢٣].

(٢٢) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، (ص/١٠٥).**

(٢٣) **علي عزت بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، (ص/٢٥).**

سابعًا: التعليم

يؤكد **بيجوفيتش** أن التعليم وحده لا يرقى بالناس ولا يجعلهم أفضل مما هم عليه أو أكثر حرية، أو أكثر إنسانية. إن العلم من وجهة نظره يجعل الناس أكثر قدرة، وأكثر كفاءة، وأكثر نفعًا للمجتمع. لقد برهن التاريخ على أن الرجال المتعلمين والشعوب المتعلمة يمكن التلاعب بهم، بل يمكن أن يكونوا أيضًا خدامًا للشر، ربما أكثر كفاءة من الشعوب المتخلفة، إن تاريخ الامبريالية سلسلة من القصص الحقيقية لشعوب متحضرة شنت حروبًا ظالمة استئصالية استعبادية ضد شعوب متخلفة أقل تعليمًا، كان أكبر ذنبهم أنهم يدافعون عن أنفسهم وحريتهم. إن المستوى التعليمي الراقي للغزاة لم يؤثّر على الأهداف والأساليب، لقد ساعد فقط على كفاءة الغزاة وفرض الهزيمة على ضحاياهم[٢٤].

ثم يعقد **بيجوفيتش** مقارنة بين التعليم التقني والتعليم الكلاسيكي، ويرى بوجه عام أن التعليم ليس ظاهرة أحادية الجانب، وأننا إذا نظرنا إليه عن قرب فسوف نلاحظ اتجاهين مختلفين متساويين، لكنّهما مستقلان، فالتعليم المدرسي في العالم المتحضر يعتمد على الفكر أكثر مما ينبغي، والجانب الإنساني فيه أضأل **(أقل)** مما ينبغي، وباستخدام المصطلحات المعتادة نقول إنه تعليم تقني أكثر مما يجب، ويكاد يكون مضمحلاً في جانبه الكلاسيكي التقليدي.

(٢٤) **علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (ص/٩٧).**

في هذه الأيام من الممكن جدًّا أن نتخيل شابًا قد مر بجميع مراحل التعليم من المدرسة الابتدائية حتى الكلية دون أن يكون قد ذكر له ضرورة أن يكون إنسانًا خيرًا أو أمينًا.

فهو يتعلم أولاً أن يكتب ويحسب، ثم يدرس الطبيعة والكيمياء، وعلم الأعراق البشرية، وعلومًا أخرى كثيرة، إنه يجمع عددًا هائلاً من الحقائق على أحسن الفروض، يتعلم كيف يفكر، ولكنه لم يستنِرْ ثقافيًّا أو روحيًّا، لم نعد نسمع إلا قليلاً عن برامج التاريخ والفنون والآداب والأخلاق والقانون. فالتعليم التقني سبب للحضارة ونتيجة لها، فهذا النوع من التعليم يهيئ العضو للدخول في المجتمع، وهو تعليم مصمم لتحقيق هذا الغرض فهو موجه لغاية محددة بإحكام، واهتمامه منصب على السيطرة على الطبيعة أو العالم الخارجي. أما التعليم الكلاسيكي فهو على العكس من ذلك يبدأ وينتهي عند الإنسان، أي أن اللاهدف هو غايته. ومعضلة التعليم التقني في مقابل التعليم الكلاسيكي ليست معضلة فنية، وإنما هي مسألة أيديولوجية تكمن وراءها فلسفة معينة. ففي هذين النوعين من التعليم ينعكس التضاد بين الثقافة والحضارة بكل ما يترتب عليه من نتائج. سنجد أن المجتمع غير الصناعي وبخاصة المجتمع الاشتراكي ينحو تجاه التعليم الكلاسيكي، في حين أن المجتمع الصناعي وبخاصة المجتمع الاشتراكي ينحو تجاه التعليم التقني[٢٥].

ويشير **بيجوفيتش** إلى أن السياق المنطقي للتعليم التقني هو التخصص، فقبل كل شيء نستطيع أن نرى الذكاء والعلم والصناعة تشكل خطًّا واحدًا، وكلها مرتبطة بعضها ببعض، كسبب ونتيجة، فالعلم نتيجة الذكاء، والصناعة هي مجرد تطبيق للعلم، وهي جميعًا شروط وأشكال لتأثير الإنسان على الطبيعة وعلى العالم الخارجي. يوفر التخصص للفرد وضعًا أفضل وأقوى في النظام الاجتماعي، أي في الآلة الاجتماعية، ولكن التخصص يقلص الشخصية الفردية ويعلي من شأن المجتمع ويجعله أكثر كفاءة، فالمجتمع يأخذ قدرات الكل، في حين أن الإنسان -كجزء من الآلة الاجتماعية- آخذ في التناقص. إن التأمل في التوسع الذي طرأ على التعليم في عام ١٩٠٠، كان في جميع الكليات والجامعات في الولايات المتحدة أربعة وعشرون ألف أستاذ، وفي عام ١٩٢٠ارتفع إلى ٤٩ ألف، ويتوقع أن يزيد في نهاية القرن إلى ٤٨٠ ألف أستاذ.

ويشير **بيجوفيتش** مع ذلك إلى أن القوتين العالميتين أمريكا والاتحاد السوفيتي **(سابقًا)** هما القوتان العسكريتان، ولكنهما ليستا أعظم دول العالم ثقافة، هاتان الدولتان تخصصان أكبر الاعتمادات للبحث العلمي والتعليم. ويطرح **بيجوفيتش** سؤالاً: أي نوع من التعليم هذا؟

كقاعدة هو تعليم مجهز وفق وصفة الحضارة. وفي الدول الشيوعية ينطوي التعليم على أن يتشرب الأفراد نظام الدولة

(٢٥) **علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (ص/١٠٢).**

الأيديولوجي والسياسي، ويخضع لمصالحها، وفي الدول الرأسمالية يتلاءم التعليم عمومًا مع المتطلبات الاقتصادية، ويحتاج إلى النظام الصناعي في كلتا الحالتين، فالتعليم هو تعليم وظيفي وفي خدمة النظام.

ويحاول **بيجوفيتش** أن يتبين السمات والصفات المشتركة بين التعليم التقني والتعليم الكلاسيكي السائد في كلا الجانبين: أول كل شيء هو اختيار بالغ التحديد ينطوي على تنافس مدمر، ويستخدم هذا التعليم لغة تخصصية صناعية في أغلب المواد الدراسية. والنظام المعماري السائد في المدارس وظيفي متقشف يتلاءم مع المعايير النفعية، وذلك لأن المدرسة إما إنها تخدم البيروقراطية الحاكمة أو تستخدم النظام الصناعي، وهما يلتقيان أو يتلاقيان في هدف واحد وهو إعداد المتخصصين الذين سيخدمون ويدعمون هاتين الآلتين[٢٦].

أما الكلام عن مدارس إنسانية هنا وهناك فهو مجرد كلام معسول لا أكثر ولا أقل، فإذا ذهبنا نحن نقيم المحتوى الثقافي للتعليم الذي تقدمه هذه المدارس فنستطيع القول إن المدرسة مكون أساسي من مكونات الثقافة، تساهم في الثقافة إلى درجة لا تجعل منها مجرد تدريب على الطاعة والنظام لأنها تنمي الفكر النقدي، وتسمح للإنسان بالحرية الروحية. أما المدرسة التي تقدم حلولاً أخلاقية وسياسية جاهزة فإنها تعتبر من وجهة نظر الثقافة مدرسة همجية؛ لأنها لا تخلق أشخاصًا أحرارًا بل أتباعًا، إنها قد تدعم الحضارة، ولكنها تحط من شأن الثقافة[٢٧].

وفي معرض حديثه عن التعليم يعقد **بيجوفيتش** مقارنة رائعة وجذابة بين التأمل والتعليم. ويؤكد أن الحضارة تعلم، أما الثقافة فتنور، وأن الأولى تحتاج إلى تعلم، أما الثانية فتحتاج إلى تأمل. التأمل يمثل **(جهدًا داخليًّا جوانيًّا)** للتعرف على الذات وعلى مكان الإنسان في العالم، ويميز بينه وبين التعلم أو الدراسة التي هي نشاط جد مختلف عن التعلم والتعليم وجمع المعلومات عن الحقائق وعلاقاتها بعضها ببعض.

أما النتيجة فيحددها بمكوني الإنسان الروحي والمادي، يؤدي التأمل إلى الحكمة والكياسة والطمأنينة، وإلى نوع من التطهير الداخلي الجواني الذي سماه الإغريق **(قطرسيس)**، إنه تكريس النفس للأسرار والاستغراق في الذات للوصول إلى بعض الحقائق الدينية والأخلاقية والفنية، وعلى الرغم من أن علي عزت **بيجوفيتش** يستلهم مبادئ القرآن في تفسيره للإنسان، وهو ما حفلت به آيات الذكر الحكيم كقول الله: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب}، وقوله: {يتفكرون في خلق السموات والأرض}، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **«تفكر ساعة خير من قيام ليلة»** رواه الاصبهاني في كتاب العظمة **(٢٩٧/١)** عن

(٢٦) **المرجع السابق، (ص/١٠٥).**

(٢٧) **علي عزت بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، (ص/١٠٦).**

ابن عباس رضي الله عنهما وفي الزهد للإمام أحمد **(ص٢٢٠)**.

إنه اكتفى بالمعنى؛ لأن الخطاب موجه للعقل الغربي في العصر الحديث، بما لا يقارن بالعصور القديمة، على الرغم من تقدم الحضارة وهو ما يعني أن الجانب النفسي فرض نفسه، وإن كان بطريقة خاطئة لتعويض الجوع الروحي في العصر الحديث. ويمضي **بيجوفيتش** في تعريف التعليم، وما يختلف فيه عن التأمل، مظهرًا قدرة هائلة على التحليل وتبسيط المعقد من دون إخلال أو سقوط في التعميم، أو إمعان في الترميز أو تشفير الكلمات والعبارات.

يرى **بيجوفيتش** أن التعليم يواجه الطبيعة لمعرفتها ولتغيير ظروف الوجود، ويطبق العلم الملاحظة والتحليل والتقسيم والتجريب والاختبار، في حين أن التأمل بالفهم الخالص، بل إن الأفلاطونية الجديدة تزعم أنها طريقة للفهم فوق عقلانية، فالملاحظة التأملية كما ينقل **بيجوفيتش** عن شوبنهور متحررة من الإرادة ومن الرغبة، إنها ملاحظة لا تتصل بوظيفة أو مصلحة، فالتأمل ليس موقف عالم، بل موقف مفكر، أو شاعر أو فنان أو ناسك، ويشير إلى أنه قد تعرض للعالم بعض لحظات من التأمل لكنه يفعل هذا، لا بصفته عالمًا، ولكن باعتباره إنسانًا أو فنانًا، فجميع الناس فنانون بشكل أو بآخر، ويقول: **(يمنح التأمل قوة على النفس، أما العلم فإنه يعطي قوة على الطبيعة، وتعليمنا في المدارس يزكي فينا الحضارة فقط، ولا يساهم بشيء في ثقافتنا)**.

ويلفت **بيجوفيتش** الانتباه إلى أن التأمل أمر مهم في عصرنا، لكن الواقع لا ينبئ بذلك، في عصرنا هذا يتعلم الناس لكنهم كانوا في الماضي معتادين على التأمل. لقد كان حكماء **(الابوتا)** يستغرقون في تأملاتهم حتى أنهم لم يكونوا يلتفتون أو ينصتون إلى أولئك الذين كانوا يزعجونهم بكثرة الأسئلة. ويتطرق **بيجوفيتش** إلى عدة قصص عن المتأملين المشهورين في التاريخ، وهو يسجل الفرق من خلال شخصيتين مشهورتين هما: تولستوي ونيوتن، لقد أمضى تولستوي حياته يفكر في الإنسان ومصيره، في حين كان نبي الحضارة الغربية قد استولت عليه طوال حياته مشكلة الجسم الساقط[٢٨].

وتجب الإشارة إلى أن **بيجوفيتش** لا يفضل هذا على ذاك، ولكن يؤكد أهمية هذا وذاك لحياة إنسانية تختلف عن البدائية وعن الربوبية في الوقت نفسه. ويقول أن تتأمل أو تتعلم أو تدرس، هي أنشطة مختلفة أو أنواع من الطاقة، ليست مستحيلة، فقد أدى الأول بيتهوفن إلى إبداع السيمفونية التاسعة، وأدى بنيوتن إلى اكتشاف قوانين الجاذبية والحركة. ويشدد على أن التعارض بين التأمل والتعليم يكرر نفسه في التعارض بين الإنسان والعالم، بين الروح والذكاء، بين الحضارة والثقافة.

(٢٨) **علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (ص/١٠٧)**.

وقد تساءل **بيجوفيتش** مرة قائلاً ما موضوع التأمل، ثم يجيب: في الطبيعة نستطيع أن نكشف العالم والإنسان، في حقيقة الأمر كل شيء يمكن اكتشافه ما عدا الذات الإنسانية أو الشخصية، فقط من خلال الذات نتصل باللانهائي، ومن خلالها فحسب، نشعر بالحرية وندرك العالم الآخر الذي نشترك معه في ميراث واحد. وخلافًا لكل الكائنات الأخرى التي تحركها الغريزة، الإنسان فقط يستطيع أن يشهد بوجود عالم الأرواح والحرية. ومن دون الذات يستحيل أن نشهد عالمًا وراء عالم الطبيعة؛ لأن كل شيء آخر بجانب ذات الإنسان هو وجود داخلي **(براني)** ظاهري. ويقر **بيجوفيتش** بأن التأمل استغراق في الذات، محاولة للوصول واكتشاف هويتنا وحقيقة حياتنا ووجودنا؛ لهذا السبب فالتأمل لا يحاول الإجابة على أسئلة عن المجتمع والبشر، إنه معني فقط بالتساؤلات التي يضعها الإنسان أمام ذاته. وإذا دققنا النظر في التأمل نجد أنه ليس وظيفة من وظائف الذكاء، فالعالم وهو يصمم نوعًا جديدًا من الطائرات لا يتأمل، إنما يفكر أو يدرس ويبحث ويختبر ويقارن، وكل هذه الأنشطة في مجموعها أو منفردة ليست تأملاً. أما العابد والشاعر والمفكر والفيلسوف والفنان فإنهم يتأملون، يحاولون الوصول إلى الحقيقة الكبرى والسر الوحيد الأكبر، بالنسبة لبقية العالم. من أجل ذلك كان التأمل نشاطًا دينيًّا، ويعود **بيجوفيتش** إلى أرسطو في التفرقة بين العقل والتأمل والفرق بين الإنسان والإلهي[٢٩].

ويعطي **بيجوفيتش** وجهًا آخر للمقارنة بين التعليم والتأمل، التعليم وحده لا يرقى بالناس ولا يجعلهم أفضل مما هم عليه أو أكثر حرية وإنسانية، إن العلم يجعل الناس أكثر كفاءة وقدرة وأكثر نفعًا للمجتمع. ويؤكد أن التاريخ برهن على أن الرجال المتعلمين والشعوب المتعلمة يمكن التلاعب بهم، بل يمكن أن يكونوا خدامًا للشر، ربما أكثر من الشعوب المتخلفة، فتاريخ الامبريالية سلسلة من القصص الحقيقية لشعوب متحضرة شنت حروبًا ظالمة استئصالية استعبادية ضد شعوب متخلفة، أقل تعليمًا، كان أكبر ذنبهم أنهم يدافعون عن أنفسهم وحرياتهم، إن المستوى التعليمي الراقي للغزاة لم يؤثر في الأحداث أو الأساليب، لقد ساعد فقط على كفاءة الغزاة وفرض الهزيمة على ضحاياهم[٣٠].

ويشير إلى حقيقة جوهرية وهي أن شعوبنا عبر قرون كثيرة مضت كانت محرومة من وجود أناس متعلمين تعليمًا صحيحًا فعالاً، وبدلاً من ذلك توفر لهذه الشعوب نوعان آخران من الناس كلاهما غير مرغوب فيه- الجاهل والمتعلمون تعليمًا خاطئًا. فلا يوجد في دولة مسلمة واحدة نظام تعليمي مُعَد إعدادًا متناسبًا قادرًا على التجاوب مع الفهم الأخلاقي للإسلام أو التجاوب مع احتياجات الناس، فأصحاب السلطة عندنا إما أنهم قد أهملوا هذه المؤسسة أو تركوها نهبًا للأجانب يتصرفون وفق مخططاتهم.

(٢٩) **بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، (ص/١٠٨)**.

(٣٠) **المرجع السابق، (ص/١١٠)**.

ويشير إلى أن أدعياء الحداثة يحاولون تنفيذ برامجهم الدخيلة فتراهم يلجأون إلى منافقة الجماهير أحيانًا، وإلى التهديد أحيانًا أخرى، يدافعون ويحثون ويقيمون التنظيمات ثم يهجرونها إلى تنظيمات أخرى، يغيرون الأسماء والشخصيات، ولكن يضربون برؤوسهم صخرة الرفض العنيد واللامبالاة الدفينة[٣١].

لذا يرى أن تعليم الجيل الجديد يعتبر جزءًا مهمًا من التربية المتكاملة، فالتعليم مع الوحدة هو العامل الحاسم للإسراع في تحرير العالم المسلم من أوضاعه المتردية في الوقت الراهن. إن البلاد المسلمة تفتقر إلى رأس المال الكافي؛ ولذلك ينبغي عليها أن تستثمر ما لديها في أعظم مجالات الاستثمار عائدًا ألا وهو التعليم. فلا يمكن أن يقوم استقلال صحيح من دون المقدرة أو القدرة على تطبيق التقدميات العلمية واستخدامها والاستمرار في تطويرها.

ويرى أنه عندما ظهر الإسلام أخذ المسلمون في عهودهم الأولى على عاتقهم دراسة وتجميع التراث العلمي الذي خلفته الحضارة السابقة، فعل المسلمون ذلك دون تعصب ولا خوف، فما بالهم اليوم يعجزون عن اتخاذ الموقف تجاه الحضارة الأوروبية التي يشتركون معها في حدود طويلة.

ليس السؤال المطروح هو ما إذا كنا نريد قبول العلم والتكنولوجيا، فلا مفر من قبولهما إذا كنا سنفعل ذلك بطريقة إبداعية أم بطريقة ميكانيكية، بشرف وعزة أم نتيجة شعور بالدونية. السؤال هو في هذا التطور الحتمي: أتضيع هويتنا أم إننا سنحافظ على شخصيتنا وعلى ثقافتنا وقيمنا؟

في ضوء هذه الحقائق يمكننا القول واثقين إن التعليم في العالم المسلم الراهن هو أكثر المؤسسات حاجة إلى تغيير جذري حاسم من الناحية الكيفية والكمية. أما من الناحية الكيفية؛ فلكي يتحرر التعليم من التبعية الروحية وفي بعض الحالات من التبعية المادية للأجانب، ولكي يبدأ في خدمة التربية لجميع المسلمين شعوبًا وأعضاء في المجتمع الإسلامي.

ومن الناحية الكمية لابد من القضاء على العجز المزمن في المدارس في أقصر وقت ممكن؛ وذلك لخلق الظروف المواتية لإتاحة التعليم لجميع الناشئة ولجميع الفئات السكانية، ويمكن للمساجد أن تقوم مؤقتًا بدلاً من المدارس بأداء هذه الخدمة، فإذا لم نفشل في برامجنا التعليمية فلن نفشل في أي مجال آخر[٣٢].

ويجب أن نشير إلى أن نظرية **بيجوفيتش** في التربية والتعليم تتفق إلى حد بعيد مع ما قاله **(مقداد يالجن)** عندما تحدث عن التربية الإسلامية الأخلاقية، إذ يرى أننا لو أردنا بناء

(٣١) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، (ص/٨٦).**

(٣٢) **علي عزت بيجوفيتش، الإعلان الإسلامي، (ص/١٠٧).**

حضارة إنسانية متقدمة؛ علينا أن نبدأ بالفرد أولاً وبتكوينه إنسانًا صالحًا خيرًا لنفسه والآخرين، وهذا يكون بالتعليم والتربية الخيرة، بتعليمه ما هو خير وما هو شر، وأن تقع حدودهما في ميدان السلوك الإنساني، ثم بتكوين روح الخير في نفسه ونزع روح الشر منها. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالتربية الأخلاقية السليمة منذ الصغر[٣٣].

ويرى أن التربية الإسلامية يجب أن تهتم بتنشئة الطفل وتكوينه إنسانًا متكاملاً من جميع النواحي، مثل: الناحية الاعتقادية والناحية العقلية والروحية والأخلاقية. مثلاً من الناحية العقلية وضع الإسلام منهجًا تربويًّا يخطط لتنمية القدرات العقلية ومداركها بحسب نمو الطفل، كذلك اهتم الإسلام بالناحية الروحية عن طريق الاهتمام بالنفس من حيث تطهيرها وتهذيبها. ويشير **(يالجن)** إلى أن موضوع التربية الإسلامية هو الإنسان بكل ما تتضمنه كلمة الإنسان من معانٍ واستعدادات. ويجب من وجهة نظره أن تكون التربية متكاملة تأخذ في اعتبارها جميع النواحي عند الفرد. ومن أهم جوانب التربية الإسلامية عنده هو تربية النفس على الإيمان لتحقق لها الاطمئنان[٣٤].

الخاتمة

من كل ما سبق نستطيع أن نستخلص النتائج الآتية:

١- أهمية إعادة النظر في التعليم التقني والكلاسيكي، لأن التعليم له دور فعال ومحوري في تقدم وتطور الأمم، كما أنه سبب الحضارة كما يرى **بيجوفيتش**. كذلك يجب الاهتمام بتربية النشء منذ الصغر وجوهر هذه التربية هو عدم الاستسلام وعدم الخضوع والخنوع، بل يجب بث روح النقد والتحدي بداخلهم، وتنمية الروح الإبداعية وإطلاق قدراتهم.

٢- تأكيد الاهتمام على دور الأسرة - المسجد - المدرسة، هذا الثالوث يمثل أهمية كبيرة في فكر **بيجوفيتش**، ويؤكد على أدوارهم المحورية في بناء نهضة الأمة الإسلامية، فالتعليم والتربية يبدآن من الأسرة منذ الصغر وتتكامل مع دور المسجد، حتى إنه أطلق مصطلح جديد سماه **(المسجد رسة)** وذلك لأهمية تكامل دور المسجد مع المدرسة في بناء الفرد والمجتمع.

٣- تأكيد **بيجوفيتش** على النظرة الإسلامية المتكاملة في رؤية أو في النظر للإنسان، الإسلام ينظر إلى الإنسان ككل متكامل، على أنه مركب من جسد وروح يجب الاهتمام بمطالب الاثنين من دون تفضيل جانب على جانب، من هنا نقد **بيجوفيتش** الحضارة الغربية المادية التي ترى في الإنسان والحياة أنهما ماديان فقط ويسعيان إلى اللذة والمتعة.

---

(٣٣) **مقداد يالجن، دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، دار الشروق، ١٤٠٣، (ص/٣٢).**

(٣٤) **مقداد يالجن، أهداف التربية الإسلامية وغايتها، عالم الكتب السعودية، ٢٠٠٣، (ص/٣٨).** أيضًا انظر جوانب التربية الإسلامية الأساسية، دار الريحان، الرياض. وأيضًا التربية الأخلاقية الإسلامية، دار عالم الكتاب، ٢٠٠٨، الرياض.

٤- أيضًا من أهم منطلقات مشروع **بيجوفيتش** الفكري -كما أكد عليه المفكر عبد الوهاب المسيري في تقديمه لكتاب الإسلام بين الشرق والغرب- هو الثنائيات في فكر **بيجوفيتش**، أي النظرة الثنائية أو القطبية الثنائية، وليس الأحادية في النظر للأشياء. مثلاً ثنائية الإنسان -الطبيعة، الأخلاق النفعية- الأخلاق الروحية، هذه الثنائيات تؤكد على تكامل الإنسان، وأنه ليس قطبًا واحدًا أو أنه ذو بعد واحد. لذا أوضح المسيري في تقديمه تأكيد **بيجوفيتش** على النموذج المادي العدمي في الحضارة الغربية، وأنها حضارة تقنية مادية ليس فيها روح أو قيم. كذلك يربط **بيجوفيتش** بين الدين والأخلاق والفن، وذلك باستخدامه النماذج المركبة، ويميز بين النموذج المجرد والتجربة المعيشة في سؤاله المعرفي: ما الإنسان؟

٥- إن من أهم عوائق النهضة الإسلامية -من وجهة نظر **بيجوفيتش**- نظرتنا نحن -المسلمين- إلى الإسلام، لأن نظرتنا تكون أحادية الجانب تنظر إلى الإسلام على أنه تعبدي فقط أي عبادات، والحقيقة غير هذا لأن الإسلام يمثل جانب عبادات ومعاملات، دنيا ودين.

٦- إن من أهم مرتكزات النهضة الإسلامية القرآن الكريم، والقرآن عند **بيجوفيتش** ليس مجرد القراءة والحفظ فقط بل التدبر والتأمل، ليس جانبًا عاطفيًّا وجدانيًّا، بل دستور حياة ومنظم لكل جوانب الحياة.

٧- التربية هي لب وجوهر الدين الإسلامي، هذه التربية تحقق القيم والمثل العليا،

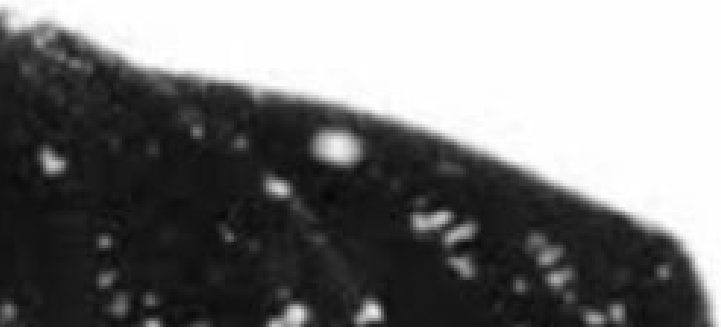

ووظيفة النظام الإسلامي أن يقف على كل أنواع التربية الخاطئة ويصححها ويضعها في المسار الصحيح.

٨- أن كل عبادة من العبادات الإسلامية لها جوانب وأهداف روحية، وليس مجرد مظاهر شكلية، الصلاة مثلاً ليست مجرد حركات ظاهرية، بل هي مدرسة للانضباط والتآخي والنظام. أيضًا الزكاة ليست مجرد صدقة، بل هي تمثل التكافل الاجتماعي في أعلى صوره.

٩- إذا أرادت الأمة أن تنهض من عثرتها عليها الاهتمام بالتعليم، ووضع خطط واستراتيجيات ومناهج تعليمية متطورة تتفق مع مقتضيات العصر، ومع البيئة الإسلامية أيضًا، لا أن نستورد مناهج من الخارج لا تتناسب مع البيئة الإسلامية.